مجلة أنثروبولوجيا
مجلد: **05** عدد: **09** السنة **2019**
P-ISSN: 2437-041X
E-ISSN:2588-2325

# مساهمة إميل دوركايم في سوسيولوجيا التربية

# Emile Durkheim's Contribution to the Sociology of Education [1]

محمد زيان

جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف، الجزائر m.zian@univ-chlef.dz

تاريخ الإرسال: 2019/04/19 تاريخ القبول: 2019/05/20 تاريخ النشر: 2019/06/01

## الملخص:

تناولت إشكالية هذا المقال ماهية سوسيولوجيا التربية وعلاقتها بالسوسيولوجيا، حيث تفرعت عنها أسئلة أخرى فيما يتعلق بـ خصائص التربية الأخلاقية عند دوركايم وطبيعة السياق السوسيو تاريخي للفكر التربوي الدوركايمي ووظائف التربية في المجتمع، وتأتي ولادة سوسيولوجيا التربية كفرع علمي استجابة لجملة من التحديات التي فرضها التطور الاجتماعي على إثر الثورة الصناعية، وعلى خلفية التحولات الاجتماعية الكبرى، التي شهدها المجتمعات الإنسانية، منذ بداية القرن العشرين إلى يومنا هذا.

يعتبر إميل دوركايم مرجعاً هاماً في تأسيس «سوسيولوجيا التربية» بأوربا، وأول من أعلن صراحة عن الحاجة إلى مدخل سوسيولوجي لدراسة التربية، وذلك في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن العشرين، حيث عمل على تطبيق المنهج السوسيولوجي في دراسة التربية باعتبارها ظاهرة سوسيولوجية بالدرجة الأولى، واستنطاق دورها في إحداث التوازن الاجتماعي للمؤسسات الاجتماعية (مثل الأسرة والمدرسة...) من خلال الأخلاق أو ما يسمى بـ «التربية الأخلاقية»، ومن خلالها أبر الطابع الاجتماعي للتربية، وخلافا للرؤى الفردية التي كانت سائدة في عصره.

[1] المؤلف المرسل: محمد زيان ، m.zian@univ-chlef.dz

الكلمات المفتاحية: السيوسيولوجيا، سوسيولوجيا التربية، التربية، الأخلاق، التربية الأخلاقية.

## ABSTRACT :

The issue of Sociology of Education and its relation to sociology has been questioned. Other questions related to the characteristics of Durkheim's moral education and the nature of the Socio-historical context of Durkheimian educational thought and the functions of education in society. The birth of Sociology of Education as a scientific branch responds to a number of challenges posed by social development In the wake of the Industrial Revolution and against the backdrop of the great social transformations witnessed by human societies from the beginning of the twentieth century to the present day.

Emile Durkheim is an important reference in the establishment of the "Sociology of Education" in Europe. He first declared the need for a sociological approach to the study of education in the late 18th and early 20th centuries. He applied the sociological approach in the study of education as a sociological phenomenon, And questioning its role in social balance of social institutions (such as the family, school ...) through ethics or so-called "moral education", through which the social character of education, contrary to the individual visions that prevailed in his time.

Keywords: Sociology, Sociology of Education, Education, Moral, Moral Education.

## 1. المقدمة

ظهرت السوسيولوجيا في القرن 19 وقد استوحت مبادرتها مباشرة من الفلسفة، وعموما من فلسفة الأنوار في القرن 18، حيث عرفت تلك الفترة العديد من الفلاسفة الذين اهتموا بدراسة الظواهر الاجتماعية، خاصة بعد سقوط النظام الإقطاعي، نتيجة الضربات التي تلقاها على يد التصنيع والثورة الديموقراطية، نذكر منهم على سبيل المثال لا العرض مونتسكيو صاحب مؤلف روح القوانين 1748 وجون لوك وجان جاك روسو مؤلف كتاب العقد الاجتماعي عام 1762، والذي تناول فيه مسألة الرباط الفردي ودوتكوفيل وإدمون بوك وفرديريك لوبلاي...وغيرهم، ويعد أوجست كونت (1748-1857) المؤسس الفعلي لهذا العلم بابتداعه مصطلح السوسيولوجيا (Sociologie)، ثم يأتي كبار المؤسسين للسوسيولوجيا المعروفين: إميل دوركايم (1858-1917)، كارل ماركس (1818-1883)، وماكس فيبر ما بين (1864-1920).

لقد أحدثت الثورة الفرنسية تغييرات عميقة في النظام اليومي للفرنسيين، وعن طريق إرادة فهم هذه التحولات تطورت منهجها في البحث السوسيولوجي جُعلت السوسيولوجيا علماً قائماً بحد ذاته متجاوزة بذلك كل التفسيرات الإيديولوجية والنفسية والبيولوجية، حيث تميز ذلك العصر ببروز بوادر «التفكير في مجتمع مغاير في طور النشأة، وبرفض الفكرة في الوقت ذاته، تزعزعت أوربا بفعل الثورة الفرنسية والمحاولات الثورية التي تعالت في القرن 19، والتحولات العميقة التي أدخلتها التطورات الصناعية والتي حركها النموذج الأنجلوساكسوني، وأخيرا الأنماط التفكيرية الجديدة التي أفرزها تطور العلوم الطبيعية»[1].

نحاول في هذه المقالة التطرق لعلاقة السوسيولوجيا بالتربية عند دوركايم ودوره في تهيئة هذا الفرع المعرفي للظهور بفرنسا في خضم ظروف سوسيوتاريخية وسياسية صعبة، وذلك من خلال مؤلفاته التي اعتمدناها في إعداد المقال: (قواعد المنهج السوسيولوجي، التربية والمجتمع، التربية والسوسيولوجيا، التربية الأخلاقية، تقسيم العمل) والحاملة لأفكار هذا العالم التي تتمحور حول دور التربية في توازن المجتمع عن طريق الأخلاق، وذلك بطرح الإشكالية التالية: ما هي طبيعة مساهمة دوركايم في سوسيولوجيا التربية؟.

تكمن أهداف دراستنا في تقديم مساهمة نظرية تستند إلى ما أنتجه تفكير دوركايم الإصلاحي والمحافظ في مواجهة المشكلات الأخلاقية والاجتماعية التي برزت أثناء عهدة

الجمهورية الثالثة بفرنسا (حيث كانت أفكار البرجوازية الصغيرة تسيطر على هذه الجمهورية)، مع محاولة تبيان لمسته السوسيولوجية في التوجيه الأخلاقي لإقامة نموذج مجتمع مختلف عن نموذج ماركس. وعليه نأمل أن تكون هذه المحاولة إضافة جديدة تتقصى أهم أفكاره السوسيولوجية في سياقها التاريخي والثقافي، فما أحوجنا إلى تكثيف الجهود الفكرية والعلمية للنهوض بالتعليم والأخلاق في بلداننا العربية التي تعاني منذ فترة طويلة من التهميش للعلوم الاجتماعية والإنسانية في تناول القضايا الثقافية والسياسية والاقتصادية، وعلم الاجتماع التربوي على وجه الخصوص ليس بمنأى عن هذا التجاهل.

## 2. تحديد موضوع السوسيولوجيا:

يعرف دوركايم موضوع السوسيولوجيا بـ أنه «العلم الذي يدرس الظواهر الاجتماعية»، حيث يبين «إمكانية وضرورة وجود علم اجتماع كعلم موضوعي على غرار العلوم الأخرى. وبرأيه، لكي يقوم هذا العلم وينهض لابد من توافر شرطين رئيسيين:

- أن يكون موضوعه موضوعاً خاصاً ومتميزاً عن موضوعات العلوم الأخرى.
- أن يلاحظ هذا الموضوع ويفسر بطريقة مشابهة للملاحظة والتفسير الخاصين بموضوعات العلوم الأخرى»[2]. كما يعرف الظاهرة الاجتماعية بقوله هي«ضروب من السلوك والشعور التي تمتاز بخاصة يمكن ملاحظتها بسهولة، وهي أنها توجد خارج شعور الأفراد (...) بل أنها تمتاز أيضا بقوة آمرة قاهرة هي السبب في أنها تستطيع أن تفرض نفسها على الفرد أراد ذلك أم لم يُرّد»[3]، أو بعبارة أخرى هي «كل ضرب من السلوك، ثابتاً كان أو غير ثابت يمكن أن يباشر نوعاً من القهر الخارجي على الأفراد أو هي كل سلوك يعم في المجتمع بأسره، وكان ذا وجود خاص مُستقل عن الصور التي يتشكل بها في الحالات الفردية»[4]، في حين يفسر ماكس فيبر الظواهر الاجتماعية انطلاقاً من ظواهر فردية، وهو يرى «أن السوسيولوجيا قبل كل شيء هي علم بخصوص الفعل الاجتماعي»[5].
- ميز دوركايم بين المجتمعات التقليدية والمجتمعات المعاصرة من خلال مفهومي التضامن الآلي والتضامن العضوي، وهذا الأخير لا يمكن تأكيده عن طريق التخصص وتقسيم العمل فقط، أي بشعور الفرد لحاجته للآخرين أو طبقة بحاجة لطبقة أخرى بشكل تلقائي، بل ينبغي إخضاع المجتمع ككل لعملية تربية أخلاقية.

لقد ألح دوركايم منذ الانطلاقة الأولى لتفكيره السوسيولوجي التربوي، على أهمية الجوانب الاجتماعية للعملية التربوية، و«كان يشعر بالحاجة إلى تحرير التربية من أغلالها بوصفها عملية سيكولوجية بالدرجة الأولى تسعى إلى تحرير طاقات الفرد الكامنة»[6]، بل نظر إليها بأنها شيء اجتماعي بالدرجة الأولى

3. **أهداف السوسيولوجيا:** نحيل إلى هدفين أساسين:

أولا: وصف الظواهر الاجتماعية: حيث أن السوسيولوجيا تريد أن تستوعب هذه الظواهر كما هي في الواقع بتطبيق المنهج العلمي عليها، ويبرر فيبر هذا المنطلق بالحياد البديهي، وبعبارة أخرى لغرض فهم العالم الاجتماعي من الضروري التمييز بين:

- الأحكام المسبقة التي تتناول واقع معين، وهي قوالب جاهزة تميل إلى تبسيط الواقع الاجتماعي وإنكار ما يمتاز به من تعقيد وتعددية وتناقض.
- الأحكام القيمية وتهدف لتقديم تقدير ما حول ظاهرة معينة، مثال أنا لا أحب مجموعة التلاميذ تلك.

فالأحكام الواقعية هي التي يستند عليها التفكير السوسيولوجي وتتمثل مهمة الباحث حيالها في جمع الآراء المحدودة عن كل فرد، وتخليصها من الطابع الذاتي والسعي لتحقيق الموضوعية مع استخدام المقاربة الكمية (الإحصاءات..) والمقاربة النوعية من خلال المقابلات والملاحظة أو بالجمع بين المقاربتين، كما يستعين الباحث بالمقارنة لضمان الموضوعية ومراعاة لتنوع العالم الاجتماعي الذي يُمكّن الباحث من فهم وشرح الأشياء المشتركة بين الأفراد.

ثانيا: وهو الفهم والتفسير، انطلاقا من الأوصاف التي يحصل عليها السوسيولوجي (معطيات سوسيولوجية)، فيحاول تفسير الحالات المدروسة، وهي ليست وحيدة وعامة، أي أنها جزئية ومتعددة، حيث يميز روبرت ميرتون بين النظريات العامة والنظريات متوسطة المدى، والتمييز بين العلوم الصعبة التي تسمح بإنشاء حقائق متغيرة وعالمية وما يسمى العلوم اللينة مثل: العلوم الإنسانية والاجتماعية بسب القدرة الانعكاسية للإنسان.

## 4. الإطار المفاهيمي :

### 4-1. التنشئة الاجتماعية:

يمكن تعريف التنشئة الاجتماعية بأنها تعليم وتلقين طرق العمل لخصائص الجماعات الاجتماعية التي ينتمي إليها الأفراد، وبفضلها يستدمج الفرد المعايير والقيم الخاصة بالبيئة الاجتماعية (قوانين، ولوائح..) ومن خلال الجزاء والعقاب والقيم (الاحترام...) ليس لها خاصية ملموسة ملزمة، إنها تمثل الأسس التي يسترشد بها الأفراد من أجل التصرف في معيشهم اليومي.

### 4-2. التنشئة الاجتماعية الأولية:

تتم أثناء الطفولة وتتعلق بكل المعارف والمكتسبات السلوكية والعامة، وتحدث في أحضان الأسرة والمدرسة، وجماعة الرفاق ووسائل الإعلام، فالطفل يتعلم من دون شك ودون أن يطرح تساؤلات حول المسافة الحرجة بين ما يتعلمه بفضل إشراكه في مختلف الجماعات الاجتماعية ناقل لنظام معياري وتفسيري للواقع يعمل دور البوصلة في نشاطه اليومي، وتتوقف المعرفة التي يكتسبها الطفل بناء لطبيعة البيئة التي تجري فيها التنشئة الاجتماعية الأولية (أسرة، مدرسة) وعلى المهارات التي يوفرها له الكبار المساهمين في التنشئة. مثال: تعلم الأسر التي تعيش في أوساط شعبية أبناءها بأساليب تنشئة تعسفية وتسلطية على غرار الأسر التي تنتمي لأوساط اجتماعية راقية، فتتصرف حيالهم بأساليب الحوار والنقاش التي يمنحهم هامشاً من الحرية.

### 4-3. التنشئة الاجتماعية الثانوية:

تجري في مرحلة سن الرشد في فترة تكون فيها التنشئة غير مكتملة أو ناجحة، ويتم ذلك من خلال تعليم الأفراد الراشدين أساليب أكثر خصوصية، فالفرد يكون في مرحلة تكوين الذات، وقابل لمخالفة القواعد والقيم بسبب اشتراكه مع فئات اجتماعية أخرى. وعلى العموم تجري عملية التنشئة الاجتماعية في اتجاهين هما:

1. تحديد وتعليم السلوكيات الشائعة في المجموعة الاجتماعية التي ينتمي لها الفرد.
2. تحديد السياق الهوياتي والشخصي للفرد، الذي يوضح تميزه ليصبح فردا مستقلاً بذاته، ومتجها نحو تأكيد ذاته بالنسبة للآخرين.

يمكن القول أن التنشئة الاجتماعية تجري في اتجاه مزدوج في تعريف الفرد بمجموعته عن طريق الانتماء والتمييز.

### 4-4. التنشئة الاجتماعية المدرسية:

عرف هذا النوع من التنشئة الاجتماعية في أوربا في القرن18 حيث كان يُنظر للأطفال على أنهم كائنات غير ناضجة ويجب ترويضها، لذلك كانت تنشئتهم تتم ضمن العلاقة التربوية بين المعلم والتلميذ، بنقل المعارف ضمن نظام تعليمي مجاني وإجباري. ويمكن تحديد هذه التنشئة بأنها مجموع المعارف المتحصل عليها في إطار نظام تعليمي ومعرفي، وكذلك في اعتبارها بمثابة مجموع الخبرات في تشكيل المدرسة، حيث تتبنى التنشئة الاجتماعية المدرسية تقريرا تربويا بالرضوخ لعدد من القوانين، والسلوكيات والعلاقات التشاركية في الوضعيات المدرسية وضمن السياق الموضوعي للتجربة المدرسية. والناتج هو بلوغ « مهنة تلميذ» التي باتت غير موجودة حسب تعبير فيليب بيرنو، الذي يثير الانتباه لفقدان أو غياب معنى المدرسة لدى أغلب التلاميذ، فالعمل المدرسي ليس كبقية الأعمال، حيث لا نتساءل في المدرسة كثيراً عن كيفية مساعدة التلاميذ، وإعطائهم معنى لمهمتهم، فمهنة التلميذ هي مهنة معرفية، تساعدهم في التعامل مع الواقع، ببساطة، ووضوح، بدون اشكالات، في حقل معياري أكثر منه تحليلي»[7].

### 4-5.الثقافة:

تعتبر الثقافة نتاج عملية التنشئة الاجتماعية ( ولا نقصد معناها الفني أو أدبي) والتعريف الأنثروبولوجي واسع النطاق، فكل فرد له ثقافته، وكذلك المجتمع، فهي بمثابة الإسمنت الأساسي لكل المجتمعات. ويمكن تعريفها بأنها طريقة حياة الأفراد، ومجموع الأفكار والعادات التي يتعلمها الفرد ويتقاسمها وينقلها جيلا بعد جيل، ونميز فيها بين العناصر اللامادية التي تقع ضمن العمليات العقلية والسلوكية التي يتم تصنفيها ضمن ثلاث مجموعات:

- نظام القيم والمعتقدات والرمزيات.
- مجموع المعايير والتصرف ( المعايير الرسمية أو غير الرسمية).
- اللغة المنطوقة (الشفهية) والمكتوبة.

إن الثقافة ليست كلا وحيدا أو منقسماً، إذ تتألف من مجموعة من الخصائص والممارسات الثقافية المتعددة حسب كل طبقة اجتماعية، والنوع والجنس والسن والمعتقدات

الدينية، وعن ثقافة فرعية لمجموعة معينة داخل مجتمع عالمي أو ثقافة مضادة إذا كانت مجموعة معينة في نزاع مع الثقافة المهيمنة، وبالتالي يمكن القول أن «الثقافة انعكاس المجتمع الذي تنمو في كنفه وكلاهما متلازمان، إذ لا يمكن أن يوجد مجتمع دون ثقافة، ولا يمكن لثقافة أن تنمو دون جماعات داخل مجتمع، فهي الأساس الذي يرتقي به البشر من الكيان البيولوجي إلى المستوى الإنساني فالاجتماعي».[8]

### 6-4. البنية الاجتماعية:

المجموعة الاجتماعية عبارة عن مجموعة من الأفراد، يعملون على الحفاظ على علاقات مستمرة ضمن سياق سلوكي متماثل ومع أهداف ومعتقدات وقيم مشتركة لوجود المجموعة الاجتماعية كما ينبغي أن تكون على درجة من الوعي لتحديد وتماسك إجراءات التكامل المتبادل بين أعضائها ( أسرة، طبقة اجتماعية... وغيرها).

### 7-4. المؤسسات الاجتماعية:

هي الوحدة المكونة لهيكل المجتمع، وتهدف لتنظيم العلاقات بين أفراده وهي مجموعة من المعايير وقواعد السلوك التي تنظم نشاط المجتمع، مثال: المؤسسات الاجتماعية السابقة = الممارسات الاجتماعية التي تتمتع بمعنى ذا أهمية، وتتعلق بالقرابة، والتكاثر، وإنتاج السلع، وما شابه ذلك، والمؤسسة الأسرية (الزواج) والتعليم ( القوانين التربوية)، الاقتصاد (عقد العمل) السياسة (المبادئ الديمقراطية).

### 8-4. الحقل:

يقصد بمصطلح «الحقل» champ حسب بيار بورديو (P. Bourdieu) جزء من العالم الاجتماعي (المسمى فضاء اجتماعي) مسير بمجموعة من القوانين جزء منها يمثل خاص والجزء الآخر عمومي في مجمل المجتمع. مثال: الحقل السياسي، الديني، العلمي، المدرسي...وغيرها. «فالمجال الاجتماعي يتشكل بنائياً، بحيث يتم توزيع الأفراد والمجتمعات داخله على أساس توزيع إحصائي، على أساس مصدرين، وخاصة في المجتمعات الحديثة المتقدمة، هما رأس المال الاقتصادي ورأس المال الثقافي».[9]

## 5. مستويات بناء الموضوع المجتمعي الماكرو والميكرو سوسيولوجي:

### 5-1. السيوسيولوجيا الكلّية (الماكرو سوسيولوجي):

هي تحليل العلاقات الاجتماعية داخل الفئات الاجتماعية الكبرى مثل تلك الموجودة في بلد ما أو مجموعة من الدول، وهو ما يسمى بالمجتمع العالمي مثال: في المجال التعليمي حيث نتحدث عن النظام التعليمي ككل أي على صعيد عالمي فمع «هذا النموذج، ترتسم معالم الطريق المؤدية إلى القطع (Rupture) مع النظرة الشائعة التي ترتب العلوم الإنسانية حسب عوالم (Mondes) متعددة يحوي كل واحد منها عددا من الظواهر الخاصة. كما ترتسم مع هذا النموذج أيضا معالم الطريق المؤدية إلى الحقل النظري الخاص بالمستويات (Niveaux)، مع ما يوجهنا إليه من وعي تمييزات تفترض واقعا مجتمعيا واحدا يمكن النظر إليه ومعالجته ارتكازاً على مقاربات (Approches) متنوعة ومتعددة».[10]

### 5-2. السوسيولوجيا الجزئية (الميكروسوسيولوجي):

هي دراسة التفاعلات الاجتماعية داخل المجموعات الاجتماعية الصغيرة، وهذا يعني عينة صغيرة في مجال التعليم على سبيل المثال: يهتم الباحث بمؤسسة أو فئة أو حتى مجموعة من التلاميذ على وجه الخصوص.

## 6. ماهية سيوسيولوجيا التربية عند دوركايم:

تعني سوسيولوجيا التربية «بدراسة البنى والعمليات والتطبيقات من منظور علم الاجتماع، وهذا يعني أن النظريات ومناهج البحث والتساؤلات السوسيولوجية المواتية تستخدم من أجل تحقيق فهم للعلاقة بين الأنظمة التربوية والمجتمع، سواء كان الأمر على المستوى الماكرو أم المستوى الميكرو»[11]، وتعرف أيضا بكونها علم «يدرس التأثيرات الاجتماعية التي تؤثر على مستقبل الدراسي للأفراد؛ كما هو الشأن بالنسبة لتنظيم المنظومة السياسية، وميكانيزمات التوجيه، والمستوى السوسيو ثقافي لأسر المتمدرسين، وتوقعات المدرسين والآباء، وإدماج المعايير والقيم الاجتماعية من قبل التلاميذ، ومخرجات الأنظمة التربوية»[12].

تقوم سوسيولوجيا التربية حسب أحمد أوزي « بدراسة أشكال الأنشطة التربوية للمؤسسات، كأنشطة المدرسين والتلاميذ والإداريين داخل المؤسسات المدرسية. كما يقوم بوصف طبيعة العلاقات والأنشطة التي تتم بينهم. كما يهتم علم الاجتماع التربوي بدراسة

العلاقات التي تتم بين المدرسة وبين مؤسسات أخرى، كالأسرة، والمسجد، والنادي. كما يهتم بالشروط الاقتصادية والطبيعية التي تعيش فيها هذه المؤسسات، وتؤثر في شروط وجودها وتعاملها»[13]، وتجدر الإشارة أن هناك تعاريف لا مجال لحصرها، لكنها تعالج في نظرنا علاقة المدرسة بالمحيط الاجتماعي، وكل التفاعلات الاجتماعية داخل المؤسسات التربوية والاهتمام بكل الأدوار والنشاطات المدرسية ومختلف العلاقات بين (المدرسين، التلاميذ، الأولياء، الإداريين..) وآلياتها التعليمية والبيداغوجية ومخرجاتها (التقويم والاصطفاء والانتقاء ). وقد يطول حديثنا إلى سرد علاقة المدرسة بالسياسة والاقتصاد والثقافة، وكلها تنطوي تحت ما يسمى بـ السوسيولوجيا التربية هذا العلم الذي يفصح عنه دوركايم في دراسة التربية بقوله: «بوصفي عالم اجتماع ومن خلال علم الاجتماع أحدثكم عن التربية، وبعيداً عن التحيز والمواربة إنني مقتنع بأنه لا يوجد منهج آخر أكثر كفاءة من منهج علم الاجتماع، في استجلاء حقيقة الأشياء وتحديد طبيعتها، فالتربية شيء اجتماعي بالدرجة الأولى»[14].

يهدف علم الاجتماع التربية عموماً لدراسة عمليات التنشئة الاجتماعية المدرسية، والمحددات الاجتماعية للنتائج والتوقعات والاحتمالات المدرسية والتقارير البيداغوجية، الخصائص والمؤسسات وموظفي التعليم والعلاقات بين الشهادات والوظائف والمشكلات التي يعاني منها كالرسوب والعنف... وغيرها، في ظل المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي كانت تعاني منها فرنسا بعد الثورة الفرنسية.

لقد وضع دوركايم من خلال سوسيولوجيا التربية أساسيات برنامج التحليل السوسيولوجي يأخذ بعين الاعتبار الواقع التربوي، حيث يميز بوضوح بين سوسيولوجيا التربية والبيداغوجيا، فالأولى ترتكز على ظواهر مثبة أو أدّلة، أي علمية والثانية قائمة على السلوكات المشجعة، ومن خلالها حدد «علم التربية "science du l'education" على نحو بالغ الوضوح بأنه علم اجتماعي، إن ما يعنيه دوركايم بالبيداغوجيا "pédagogie" ليس نشاطاً تربوياً أو علماً تأملياً بل ما يعنيه بالبيداغوجيا، هو تأثير الجانب الثاني (التأمل) في الجانب الأول النشاط، وهذا يعني أن المهمة الأساسية للتأمل الفكري تكون في عملية البحث التي تجري في إطار معطيات علم النفس، وعلم الاجتماع عن المبادئ الأساسية للسلوك الإنساني من أجل الإصلاح التربوي والبيداغوجيا، وفقا لذلك التصور يمكن أن تكون مثالية من غير أن تنتهي إلى مصائد الإيتوبيا»[15]، وبالتالي يمكن القول أن التربية لا تعني على حد تعبير علي أسعد وطفة البيداغوجيا، «فالبيداغوجيا كما يراها دوركايم، نظرية تطبيقية نقدية تعمل على توجيه الحياة التربوية، وهدايتها نحو آفاق محددة، وعمليات معلنة، وهي تشكل منظومة من المبادئ والرؤى والمناهج التي توجه العملية التربوية، ومع ذلك فإن البدياغوجيا هي التي تعطي التربية

معناها ودلالاتها، ومن غير البيداغوجيا (نظرية التربية) تتحول التربية إلى فعل عشوائي يفقد دلالاته ومعناه»[16].

عليه يمكن القول أن هذا التمييز نابع من نقد الواقع وأعمال السابقين من فلاسفة وباحثين في الشأن التربوي حيث تأخذ بعين الاعتبار أهم المقومات الأساسية للتربية في بناء المجتمع بدأ بتناوله لفطرة النفس البشرية وميولها ونوازعها ثم ميراثها التاريخي والاجتماعي، وما يجب توفيره من متطلبات واحتياجات للنشء لكي يعيش الحاضر.

وتنقسم التوجهات النظرية في سوسيولوجيا التربية إلى ثلاث اتجاهات:

1. نظريات الدور والتفاعل الاجتماعي، العلاقات بين المعلمين والتلاميذ والأسر والإدارة والاقتصاد
2. نظريات المؤسسات والتنظيمات التربوية – دراسة البني والهياكل (تأثير الأقسام، تأثير المدارس)
3. النظريات السوسيو اجتماعية – دراسة العلاقات بين المعلم وبقية الأنظمة الاجتماعية. مثل الاقتصاد، السياسة، والإدارة.

بعد أن كانت سوسيولوجيا التربية ضمن السوسيولوجيا الجزئية منذ سنوات طويلة، فقد تطور بشكل ملحوظ على مستوى سوسيولوجيا ( تحليل الأدوار والتفاعلات) وعلى مستوى السوسيولوجيا الكلية (تحليل العلاقات بين النظام وبقية أنساق المجتمع) والرابطة المتوسطة (الواسطة) المؤلفة من تحليل المنظمات والمؤسسات المدرسية (مثال: المدرسة).

### 1-6. التربية الأخلاقية عند دوكايم:

انطلق دوركايم في تناوله لمفهوم «التربية الأخلاقية» بطرحها كمشكلة برزت في ظروف خاصة مرت بها فرنسا وكانت سببا في أزمة عانى منها النظام التقليدي للتربية فيقول « هذه المشكلة كما قلت، هي سبب الأزمة التي يعانيها نظام التقليدي للتربية، وهي التي تهزه هزا قد يبلغ أحيانا درجة كبيرة من العنف والخطورة، إذ لا يخفى أن كل ما من شأنه أن يضعف التربية الخلقية، وكل من يخشى من التشكيك في رسالتها، يهدد في الوقت نفسه الخلق العام في صميمه، ولهذا فإن هذه المسألة تقتضي المربين كثيرا من العناية والاهتمام وتتطلب فهم علاجا سريعا»[17]، وعلى هذا الأساس شدد على طبيعة التربية الأخلاقية العقلية التي يعني بها

«التربية التي لا تستند إلى المبادئ التي تقوم عليها الديانات المنزلة، وإنما ترتكز فقط على أفكار ومبادئ يبررها العقل وحده، أي أنها في كلمة واحدة تربية عقلية خالصة»[18].

كما خصص دوركايم في صميم ما أسماه بـ علم الأخلاق «مكاناً لسوسيولوجيا التربية، وبدلا من أن يطيل الكلام عن القيم الكونية والحضارة بالطريقة الكلاسيكية للفلاسفة الأوربيين، فقد تبنى دوركايم منذ البداية موقفا نسبيا يؤسس لإمكانية علم للتربية، لكل مجتمع نظامه التربوي الخاص به ويشارك في تحديد فرادته. للتربية وظيفة اجتماعية أساسية، وهي تقديم الأفكار التي توجهنا في وجودنا في العالم، الهدف الأول للتربية هو ربط الطفل بالمجتمع، وبعدئذ، فإن عمل دوركايم هو، من جهة، نظري: تعريف التربية وصلتها بالأخلاق؛ ومن جهة أخرى تطبيقي: توجيه أصول التربية الحديثة»[19].

من منطلقات اشتغاله الفكري الاهتمام بالتعليم الذي يعرفه بأنه ظاهرة اجتماعية بارزة، وهو عمل الأجيال البالغة على أولئك الذين لم ينضجوا بعد للحياة الاجتماعية. وهدفه إثارة وتنميه الطفل في عدد معين من الجوانب المادية والفكرية والأخلاقية المطلوبة منه ومن المجتمع السياسي ككل والبيئة الخاصة التي يستهدفها بصفه خاصه، لذلك فهو يعتبر التعليم «واجب مقدس، كما رأى في العديد من طلبته نوعا من الولاء لمستقبل التعليم في فرنسا، وبالإضافة إلى التعليم والبحث وجد دوركايم متسعا من الوقت، ليؤسس مع العديد من زملائه: أول مجلة سوسيولوجية، وهي حولية علم الاجتماع»[20]، وبناء لذلك حدّد دوركايم- وظيفتين رئيسيتين للمدرسة وهما: الإدماج الاجتماعي والسياسي للأجيال المقبلة، وبالتالي إدماجها في التقسيم الاجتماعي للعمل.

## 2-6. الوظائف الاجتماعية للتربية حسب دوركايم:

### 1-2-6. دوركايم (1858-1917) وتحديد السياق التاريخي:

ولد دوركايم في مدينة إيبنال بفرنسا في 15 أفريل 1858 توفي عام 1917، إذ يعتبر أحد المنظرين المشهورين في النظرية الوضعية بعد أوجست كونت، وأحد أهم رواد الحركة العلمية في عصره وهو «أول عالم اجتماع أكاديمي في فرنسا، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، ويرجع ذلك، وبصفة خاصة إلى ارتباط جوانب حياته كلها بعمله الأكاديمي، ومع ذلك فقد كان معنيا بمشكلات المجتمع الفرنسي، ومتصلا بها اتصالا وثيقا. لكن اهتمامه بهذه المشكلات، كان مختلفا عن اهتمام غيره، وذلك نظرا لوضعه المهني والعلمي المستقر ومكانته الراسخة بحيث يمكننا أن نقول أن دوركايم، على خلاف المفكرين السابقين له، وشأنه شأن

اللاحقين، قد صارع في المسرح الفكري والاجتماعي ذاته، وهو يرتكز على وضع أكاديمي وعلمي، ولم ينطلق في صراعه هذا من داخل الشارع السياسي والفكري والاجتماعي ذاته»[21]، شغل كرسي علم الاجتماع والتربية في جامعتي بوردو والسربون، ويمكن اختصار أهم محطاته التاريخية المؤثرة مساره الفكري، كما يلي:

- 1870 الحرب مع بروسيا وهزيمة فرنسا- سياق طفولة دوركايم.
- 1871 تأثير مأساة بلدية باريس (بين مارس وماي) على دوركايم.
- كان له تكوين فلسفي غير أنه ارتبط بمجتمعه ومشاكله، وحاول أن يقدم يدّ المساعدة لجعل المواطنين متضامين ومتحدين والمساهمة في دفع التغيير الاجتماعي نحو التماسك الذي يسمح للمواطنين بالعيش نحو الأحسن، والتواصل مع الآخرين، كما أنه «أبدى انتقادات أصيلة حول مفهوم التربية التقليدي الذي يركز على الجانب الفردي في التربية، وهو المفهوم الذي يتبناه أسلافه، والذي نجده عند كانت (Kant) وهيربارت (Herbart) وستوارت ميل (Stuart Mill) وسبنسر (Spencer)»[22]، وقد عمل على تجاوزها، لأن أفكارهم أضفت على التربية صبغة مثالية تجاوزت حدود الزمان والمكان دون ربطها بالسياق السوسيوتاريخي وعلى «خلاف أسلافه جميعا ينظر دوركايم إلى التربية بوصفها شيئا اجتماعيا بالدرجة الأولى».[23]

### 6-2-2. السياق الاقتصادي والثقافي:

يقول موريس ديبوس (*Maurise Debesse*) كان دوركايم «كأي كلاسيكي، مرآة شمولية لعصره وعقيدته، انعكاساً للمرحلة التاريخية التي عاشها، وهي مرحلة الجمهورية الثالثة، عصر التعليم العلماني، الذي ساد نظامنا التعليمي العام وعصر التطور الصناعي الكبير، وهو العصر الذي شهدت فيه العلوم الإنسانية عهد ازدهارها وتطورها»[24]، وبالتالي عرف السياق التاريخي والثقافي العناصر التالية:

- نمو الرأسمالية الصناعية.
- زيادة الوعي شيئا فشيئا وأكثر حدّة بالطبقات العمالية التي شكلت فيما بعد الاشتراكية - الماركسية.

- صعود روح العلمانية التي تسعى لمواجهة اليد التي توجهها التربية عن طريق الكنيسة.
- تقدم كبير وملحوظ للعلوم الفيزيائية والطبيعية التي عززت قوة الروح العلمية.

لذلك يثير دوركايم المسألة الرئيسية والمفتاحية لعلاقة الإنسان بالجماعة وأساس المجتمعات، حيث يعتقد أنه من أجل بناء علم اجتماعي علمي، من الضرورة بمكان التغلب على الإيديولوجيات السياسية والاجتماعية، والسعي لتحديد ظروف وجود مجتمع يحترم الأفراد وتطوير المدارس والتربية.

من ضمن الآثار العلمية التي تركها دوركايم قبل مماته منشوراته الرئيسية الثلاث التي أمكننا الإطلاع عليها بفضل عناية تلميذه بول فوكونيه (Paul Faucounet)* وهي:

- التربية والمجتمع 1922.
- التربية الأخلاقية 1925.
- التطور البيداغوجي في فرنسا 1938، وتعد هذه الأعمال من أهم الإنجازات التي كتبت في مجال النظرية السوسيولوجية التربوية.

## 7. دوركايم ووظائف التربية في المجتمع:

كرس دوركايم كل جهوده في تناول التطور البيداغوجي بفرنسا عن طريق كتابة مجموعة من النصوص في التربية. ففي نص كتبه عام 1911 في القاموس البيداغوجي لـ فرديناند بويسون «يميز التربية كضرورة تتكون في كل مجتمع من قاعدة مشتركة من المعارف والأفكار والعناصر المتنوعة، غير منفصل عن الروح لدى دوركايم من خلال إسهام المدرسة لنوع من التوافق الاجتماعي، فالمدرسة لها وظيفة النقل من جيل لآخر للقيم المشتركة وتمثل المحرك الأساسي للاستمرارية الاجتماعية والثقافية»[25]، أي أن وظيفتها ضرورية في المجتمع، حيث من خلالها تورث السمات السائدة الحاملة لتراث الأمة وتاريخها والمحافظة على كيانها من التفكك والانزلاقات والعنف ومختلف المشكلات الاجتماعية، فالتربية «تنشئة اجتماعية تمارسها الأجيال السابقة على الأجيال اللاحقة، وفي سياق آخر انطلاقا من ملاحظة الوقائع

*- يمكن الإشارة أن هناك أعمال أخرى نشرت بعد وفاة دوركايم مثل: الاشتراكية (1928)، علم الاجتماع والفلسفة (1924)، دروس في علم الاجتماع (1950)، مونتسكيو وروسو (1953)، وغير ذلك من المقالات والأعمال.

ودراسة الأنظمة وتحليل البنى المعرفية، يعرف دوركايم التربية بأنها الفعل الذي تمارسه الأجيال الراشدة على الأجيال التي لم ترشد بعد، وذلك من أجل الحياة الاجتماعية»[26].

كما استدل دوركايم بالملاحظة التاريخية مؤكدا على أن كل مجتمع، بحاجة في زمن محدد من تطوره، لنظام تربوي ضروري للأفراد، ويحدد كل مجتمع تمثيلا أو تصورا مثالياً للفرد، عن ما يجب أن يكون عليه من وجهة نظر فكرية، فيزيقيا وأخلاقيا. وهذا التصور المثالي للسلوك الفردي يحدد عن طريق مجتمع تنشده المجموعات الاجتماعية المسؤولة عن التنشئة الاجتماعية. فالمجتمع لا يمكن أن يعيش بمعزل عن أعضاءه؛ وبالتالي تسمح التربية باستمرار يته وتضمن ديمومته عن طريق تثبيت الروح والعناصر الضرورية للحياة الجماعية، ويؤكد ذلك بقوله: «لكل مجتمع، في الواقع وفي لحظة ما من مستويات تطوره، نظام تربوي، يفرض نفسه على الأفراد عبر قوة لا تقاوم، ومن الخطأ أن نعتقد بأننا نستطيع تربية أطفالنا بالطريقة التي نرغب فيها أو نريدها، فهناك عادات وأعراف يجب علينا أن نخضع لحكمها، وعندما نحاول أن نخرج عنها بقوة، فإن ذلك ينعكس سلباً على حياة أطفالنا»[27]، فهو يحيل صراحة لأهمية الوعي الجمعي في تكوين شخصية الفرد عن طريق نقل الموروث الثقافي الجماعي، مع تأكيده على خاصية القهر والإكراه، لذلك فالفرد هو نتيجة طبيعية للمجتمع. وعن طريق التربية يتحول إلى كائن اجتماعي، وهي حسب هذا الطرح بمثابة «المؤسسة المنوطة بالصراع في المجتمع، فمن ناحية تقيم التربية وتدعم الإجماع والتضامن عبر وظيفتها الخاصة بالتنشئة الاجتماعية، ومن ناحية أخرى، فإن المصلحة الذاتية للأفراد والجماعات تتطلب تنظيم التربية، وهو يقر بأن التربية مسؤولة عن إنتاج البالغ المثالي، كما نوّه إلى أن التربية هي مهمة أولئك الذين يشاركون في هذه العملية»[28].

يمكن القول، أن التنشئة الاجتماعية تتم منذ الولادة، ولكنها تحدث في المدرسة بشكل نسقي منتظم، بحيث تصبح مركزا للاستمرارية الاقتصادية عندما يتعلق الأمر بنقل القيم والقواعد والمعارف والخبرات، لكن كل مجتمع يتغير مع الزمن، وتأخذ المدرسة عبر التاريخ بعين الاعتبار الاحتياجات البارزة والتي لا تزال بعيدة عن الطابع المؤسساتي في المجتمع السياسي العام، ورغم أن دوركايم أبرز أن التعليم «يتغير على إيقاع التغيرات الاجتماعية، إذ يقول: تكون التحولات الاجتماعية دائما نتاجا ومؤشرا لتحولات اجتماعية قادرة على أن تفسر ما يجري في مجال التربية، ومع ذلك فإنه لم يدرس الجوانب العكسية، أي دور التغير التربوي في حياة المجتمع»[29].

## 8. الخاتمة

استطاع دوركايم التأكيد على أنه كلما تنوع المجتمع ازداد عدد الأفراد المتخصصين وزاد اعتمادهم على بعضهم البعض، وبالتالي فالثقافة المستوعبة من طرف الأفراد هي التي تكفل اندماجهم في المجتمع المعاصر وتجعل تماسكهم ممكنا. وفي هذه الفترات التي تعرف تغيرات اجتماعية قوية، يمكن أن تؤدي إلى إضعاف الوصول لمؤسسات تعليمية وتحيلها إلى مؤسسات تعيش حالة من الأنوميا (ضعف القواعد الاجتماعية التي تترك فرد يواجه لوحده المؤثرات والعواطف دون تنظيم جماعي)، وعليه فالمجتمع بحاجة لنظام أخلاقي يكفل توازن المجتمع ويحميه من التفكك والتصدع، ويكون ذلك عن طريق المدرسة.

كما توصلنا من خلال هذا المقال لنتيجة هامة مفادها ضرورة طرح أسئلة جديدة، تكون بمثابة محاولات تحاكي الواقع التعليمي الذي تعيشه الدول العربية والجزائر على وجه الخصوص، وهي كذلك أسئلة تسترشد بالقضايا والمشكلات التي يعاني منها قطاع التربية، لنحيل بذلك للعلاقة بين المجتمع والسياسة والاقتصاد. للإعراب عن آمالنا الموضوعية كباحثين في الشأن السوسيولوجي في بلورة نموذج تربوي ينبغي إتباعه لتعليم التلاميذ ويساعد المعلمين والمربين في تجاوز مشكلاتهم النظرية والميدانية، وفي الوقت ذاته، يعني بالتواصل مع الآخرين في نقل المعرفة العلمية والأدبية، وهو ما يجعلنا نطرح السؤال التالي: كيف يمكن للمدرسة أن تؤدي وظيفة حفظ النظام العام وفي ذات الوقت تساهم في التغيير؟.

## الهوامش:

1- جان بيار دوران وروبير فايل. علم الاجتماع المعاصر. تر: طواهري ميلود، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012، ص.23.

2- عبد الله إبراهيم. علم الاجتماع (السوسيولوجيا)، المركز الثقافي العربي، ط3، المغرب، 2010، ص.91.

3 – إميل دوركايم. قواعد المنهج في علم الاجتماع، دار موفم للنشر، الجزائر، 1990، ص.44.

4 - المرجع نفسه، ص .57.

5- فيليب كابان وجان فرانسوا دورتيه. علم الاجتماع من النظريات الكبرى إلى الشؤون اليومية أعلام وتواريخ وتيارات. تر: إياس حسن، دار الفرقد، سوريا، 2010، ص.47.

6- علي أسعد وطفة. أصول التربية، اضاءات نقدية معاصرة، لجنة التأليف والتعريب والنشر، الكويت، 2011، ص215.

7- Philippe Perrenoud. Métier d'élève et sens du travail scolaire, ESF éditeur, France, 1994, p14.

8– مأمون طربيه. علم الاجتماع في الحياة اليوميةM قراءة سوسيولوجية معاصرة لوقائع معاشة، دار المعرفة، لبنان، 2011، ص.63.

9- عثمان إبراهيم عيسى. النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، 2008، ص171.

10- عبد الله إبراهيم. علم الاجتماع، مرجع سابق، ص.76

11– لورنس ج. ساها. المدرسة والمجتمع: التمدرس واللاتمدرس، دراسات مترجمة في أصول التربية، تر: عصام الدين علي هلال و محمد ابراهيم المنوفي و أميرة عبد السلام زايد، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، مصر، 2018، ص09.

12– عبد الكريم غريب، المنهل التربوي، ج2، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، 2006، ص.863

13– أحمد أوزي، المعجم الموسوعي لعلوم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، 2006، ص.167

14- إميل دوركايم. التربية والمجتمع، تر: على اسعد وطفة. دار معد للطباعة والنشر، دمشق، ط5، 1996، ص 18.

15– المرجع نفسه، ص .28

16- علي أسعد وطفة، مرجع سابق، ص.62

17- إميل دوركايم، التربية الأخلاقية، تر: محمد بدوي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ص.05

18– المرجع نفسه، ص.05

19- فيليب كابان وجان فرانسوا دورتيه، مرجع سابق، ص.59

20– والاس رث، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع: تمدد آفاق النظرية الكلاسيكية، تر: محمد عبد الكريم الحوراني، دار المجدلاوي للنشر، الأردن، 2012، ص .56

21- محمود عودة، تاريخ علم الاجتماع، دار النهضة العربية، لبنان: (د. ت)، ص.189

22– إميل دوركايم، التربية والمجتمع، مرجع سابق، ص.11

23- علي أسعد وطفة، مرجع سابق، ص.49

24- إميل دوكايم، التربية والمجتمع، مرجع سابق، ص10

25 - Pierre Paul Zalio, Durkheim, Ed HACHETTE, Paris, 2001, pp 106-107.

26- علي أسعد وطفة، أصول التربية، مرجع سابق، ص.49

27– إميل دوركايم، التربية والمجتمع، ص 20 ص.21

28–لورنس ج. ساها، مرجع سابق، ص.13

29- علي أسعد وطفة، أصول التربية، مرجع سابق، ص217.

## المراجع بالعربية

1. إبراهيم، عيسى عثمان. النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، 2008.
2. أوزي، أحمد. المعجم الموسوعي لعلوم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، 2006.

3. دوران، جان بيار وفايل، روبير. علم الاجتماع المعاصر. تر: طواهري ميلود، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012.
4. دوركايم، إيميل. التربية الأخلاقية، تر: محمد بدوي، مراجعة: علي عبد الواحد وافي، تقديم: محمد الجوهري. القاهرة: المركز القومي للترجمة.
5. دوركايم، إيميل. التربية والمجتمع، تر: على اسعد وطفة. دمشق: دار معد للطباعة والنشر، ط5، 1996.
6. دوركايم، إيميل. قواعد المنهج في علم الاجتماع، دار موفم للنشر، الجزائر، 1990، ص44.
7. رث، والاس. النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، تمدد آفاق النظرية الكلاسيكية، تر: محمد عبد الكريم الحوراني. الأردن: دار المجدلاوي للنشر، 2012.
8. طربيه، مأمون. علم الاجتماع في الحياة اليومية قراءة سوسيولوجية معاصرة لوقائع معاشة، دار المعرفة، لبنان، 2011.
9. إبراهيم، عبد الله. علم الاجتماع (السوسيولوجيا)، المركز الثقافي العربي، ط3، المغرب، 2010.
10. عودة، محمود. تاريخ علم الاجتماع، دار النهضة العربية، لبنان: (د. ت).
11. غريب، عبد الكريم. المنهل التربوي، ج2، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب: 2006.
12. كابان، فيليب ودورتيه، جان فرانسوا. علم الاجتماع من النظريات الكبرى إلى الشؤون اليومية: أعلام وتواريخ وتيارات. تر: إياس حسن، دار الفرقد، سوريا، 2010.
13. لورنس، جون ساها. المدرسة والمجتمع: التمدرس والاتمدرس، دراسات مترجمة في أصول التربية، تر: عصام الدين علي هلال و محمد ابراهيم المنوفي و أميرة عبد السلام زايد، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، مصر، 2018.
14. وطفة، علي أسعد. أصول التربية، اضاءات نقدية معاصرة، لجنة التأليف والتعريب والنشر، الكويت، 2011.

## المراجع الأجنبية

1- Zalio, Pierre Paul. Durkheim, Ed HACHETTE, Paris, 2001.
2- Perrenoud, Philippe. Métier d'élève et sens du travail scolaire, ESF éditeur, France, 1994.